ما قبل الإعدام

أكرم بن إبراهيم بن صالح الهميسي "تونس"

اقترب أجلي..فتجسد أمامي ملك الموت، وكان فارع الطول، عبوس الوجه، وكان يحمل بين جناحيه ساعة عملاقة...اقترب مني،وكنت أرتجف من شدة الخوف، وبعد أن وضع ساعته أمامي، تحركت شفتاه العملاقتان، ثم خاطبني قائلا:

-أيها العبد..هذا ما بقي من وقتك في الدنيا. فتأمل مليا هذه

الساعة، فأيامك معدودات، وإني لعائد لأقبض روحك..

فينتابني ذعرا شديدا،واصفر وجهي،وجف الدم في عروقي..وقلت ميتاليكا:

-لكني لا أريد أن أموت الآن... أيها الملك العظيم، امنحني وقتا أطول، وسأصبح عبدًا صالحًا..

فتجاهل كلامي، وأشاح بوجهه المرعب عني، وكنت أتأمل الساعة، ورأيت اسمي منحوتا على أحد عقاربها، وأمعنت النظر فيها، كان قد مر على زمني أربعون عاما ويبدو أن عقرب الساعة سيتوقف في العلامة المخضبة بالأحمر والمنحوت فوقها كلمة"نهاية"...تسارعت نبضات قلبي، وتمعنت حائط

الساعة، وكان قد بقي لي ثلاث أشهر وخمس أيام فقط، وكررت العد مرات ومرات، لعلني قد غفلت على بعض الأيام أو الشهور...

وسرعان ما اختفي ملك الموت من أمامي، وتركني في حيرة من أمري، وهتفت في نفسي:

-لعل الأمر أضغاث أحلام، ومايزال أمامي عمر طويل..لا..لا يمكن،لقد شاهدت الملك بأم عيني، وعددت أيامي المتبقية أكثر من مرة، ولمست عقارب تلك الساعة الملعونة بيداي هاتان..آه..آه..لقد انتهي كل شيء...

ومرت الأيام بسرعة، وكل يوم يضيع يقربني من القبر أكثر وأكثر..وفي ليلة من ليالي الشهر الأخير من عمري، اجتمعت بأمي وزوجتي و أخي الأصغر، وقررت مصارحتهم بما أخبرني إياه ملك الموت، وبعد أن أخرجت من صدري نفسا عميقا، قلت لهم:

-أرجو أن لا يألمكم كلامي، ولكنها حقيقة وجب عليكم تقبلها...إن الأعمار بيد الله،وقد تجسد أمامي ملك الموت، وأخبرتني ساعته بأنه لم يبقى لي من العمر الشيء الكثير..

ما إن أنهيت كلامي حتى شحب لون أمي وذهلت من هول الصدمة.

أما زوجتي فغلبتها دموعها، وانتفض أخي من مكانه، يحدق بي، وكأنه لايريد تصديقي..

وظلوا كذلك في جو من الحيرة والكآبة، حتى اقتنعوا أخيرا بحقيقة موتي القريب...وقبل أن يدخل ثلاثتم في حزن عميق، استجمعت شجاعتي وخاطبتهم:

-هذه مشيئة الله،فلم الحزن؟..أليس من الجيد أني أخبرتكم حتى لا نباغت بالأمر،وإني لأشدكم حسره على عمري القصير،ولكن ما باليد حيلة..

ومضى أسبوعان وأنا لا أفعل شيء سوى عد أيامي الباقية،وقد لاحظت أن تصرفات زوجتي بدأت تتغير،وكم من مرة تنسى حصتي حتى في وجبات الطعام،وكثيرا ما طرح على أخي مواضيع تخص الإرث وأملاك العائلة،أما أمي فما عادت تذكرني حتى في دعواتها..اقتنعت حينها بأني مت بداخلهم منذ اليوم الذي أخبرتهم فيها عن قصتي مع ملك الموت،فبكوني بحرقة لأسبوع أو أسبوعان،ودفنوني بداخلهم وما أنا اليوم بينهم إلا مجرد جسد بلا روح..وانقضى الشهر الثالث ولم يبق في عمري إلا يوم واحد..

خرجت هائما على وجهي أمشط الطرقات،وأجول ببصري في أماكن كانت لا تعني لي أي شيء،وأصبحت اليوم أطوق للمكوث فيها..جلست في محطة

الحافلات،أتأمل حشود الناس متمعنا في أدق تفاصيلهم،وكنت أبتسم بين وبين نفسي وأقول:

-يبدو أن كل شيء في لحظات الوداع يصبح جميلا ولا نقوى على فراقه..

و أواصل طريقي،وأتوغل في أحد الأنهج المظلمة،وأجد شابا يجلس مطأطئا الرأس،ودموعه تتساقط أرضا...فاقتربت منه لنتابدل الحزن،و خاطبته قائلا:

-هل أن حزنك أشد حزنا من حزني أيها الفتى؟

فرفع رأسه، وكفكف دموعه، ونظر إلي باستغراب،ثم قال:

-وهل هناك حزن أشد من أن ترى ملك الموت أمامك؟

فقلت مندهشا:

-وما قصة ملك الموت معك؟

-لقد أتاني حاملا معه ساعة عمري،ولم يبق لي في هذه الحياة سوى يوم واحد..

-وهل انفض من حولك الجميع ودفنوك قبل أن تموت؟هل هذا ما يحزنك؟

-امم..نعم..نعم..هذا ما حصل..وكيف عرفت ذلك؟

-نحن في الوزر سواء،فلقد حل بي ما حل بك،ويبدو أننا سنموت سويا يا صاحبي..

أطلق الفتى ابتسامة شاحبة،ثم قال:

-يالها من مصادفة!..إذا أنت من سيصطحبي إلى القبر..

ثم لزمنا الصمت،وعقارب الساعة تدور بسرعة في يومنا الأخير،وكنا نتصبب عرقا،وقد انتاب الخوف والجزع كلينا،ومرت الدقائق ثقيلة،ولم نعد نقوى حتى على الكلام،وكنت أنظر إليه تاره وإلى ساعتي اليدوية تارة أخرى،وأهتف في نفسي:

-لقد اقترب منتصف الليل،وأشرف اليوم على الرحيل،وما من أحد سوى هذا الفتى،هل من الممكن أن يكون هو قاتلي؟..أنه هو حتما فلا أحد غيره هنا..لما لا أباغته وأقضي عليه وأنجو بنفسي..

وتمكنت مني هذه الفكرة الرهيبة،وكنت أود أن أنجو بنفسي من براثن الموت،وكنت أتحسس حجرا ملقى بجانبي،وفي لمح البصر هويت بها على رأس الفتى،فسقط مغشيا عليه،وظللت أضرب وأضرب حتى هشمت رأسه،وملأت الدماء المتناثرة أرجاء المكان...ونظرت إلى الساعة الملطخة بالدم،إنها تشير إلى منتصف الليل،فابتسمت وقلت في نفسي:

-يبدو أني نجوت..

وعدت إلى منزلي،وألقيت بنفسي فوق السرير لأخلد للنوم بعد يوم عسير..

وعندما استفقت،وجدت نفسي في مكان غريب،كنت مفترشا الأرض في غرفة موحشة لا يوجد بها أي شيء،الباب محكم الاغلاق به فتحة صغيرة تتوسطها أعمدة من الحديد الصلب...فتملكني الرعب وصحت بأعلى صوتي:

-أين أنا؟..أخرجوني من هذا المكان الموحش..

وفجأة فتح الباب على مصراعيه،ودلف الغرفة أشخاص مرتدين بدلات رسمية وبأيديهم أسلحة و سياط،وسمعت أحدهم يقول:

أوثقوا هذا القاتل اللعين،وإن سمعتم صوته ثانية ألقوه في زنزانة أخرى إلى أن ينفذ عليه حكم الإعدام..

***